الفصل الرابع

البيان القرآني وتهمة الشعر

openkan.com

obeikan.com

لعل أول ما يتبادر إلي الذهن حيال تهمة الشعر التى أطلقها مشركو مكة على القرآن هو التساؤل عن وجه التماثل من منظورها ـ فى زعمهم ـ بين بيانه الخالد والشعر؟! ذلك التساؤل الذى يزداد إلحاحًا على النفس فى ظل الحقائق التالية:

١ ـ أن الشعر عند نزول البيان القرآنى قد كان كما قيل: «علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه» [(١)] ، فمغزى هذا القول أن الذين حاولوا ترويج تلك التهمة (وكذا من أريد التأثير عليهم بها) لم يكونوا جاهلين بماهية الشعر، أو غافلين عن تمايزه بخصائصه النوعية من ذلك البيان!!

٢ ـ أن هؤلاء المشركين قد عجزوا رغم تفوقهم في مضمار اللسن والفصاحة عن الإتيان بمثل القرآن، بل بسورة واحدة من مثله (مع تحديه لهم بهذا وذاك) ، ومقتضى ذلك أنهم حين أقبلوا على ترديد تلك التهمة قد كانوا ـ يقينًا ـ يحسون بنقيض ما تود إثباته، أى بحقيقة البون الشاسع أو الحجاز البيانى الفاصل بين الشعر الذى نبغوا فى ميدان إبداعه (نبوغ قوم موسى في ميدان السحر، وقوم عيسى فى ميدان الطب) وذلك البيان القرآنى الذى خرست ألسنتهم دون مجاراته، وتصاغرت طاقاتهم الإبداعية فى مواجهة تحديه!!

٣ ـ أنهم لم يطلقوا تلك التهمة التى هم أعرف الناس بكذبها من قبيل الهزل أو المعابثة، وذلك فى ضوء ما هو معلوم من أنهم كانوا أصحاب لدد ومكابرة في موقفهم من ذلك البيان القرآنى الذى سفّه عقولهم، وزيف معتقداتهم، وأنذرهم إن لم يستجيبوا لهديه بالويل والثبور ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾ [مريم:٩٧] ، ومقتضى ذلك أنهم ما كانوا ليقبلوا على تلك التهمة «فضلاً عن أن يتشبثوا بترديدها)

---

(١) طبقات فحول الشعراء : (ج١/ ٢٤).

دون أن يقدروا أنها سوف تصادف رواجًا في مجتمعهم الذى يودون صرفه عن القرآن، وتنفيره من الاستماع إليه، ومن البديهى ـ فى ظل الحقيقتين السالفتين ـ أنهم ما كانوا ليقدروا لها هذا الرواج دون أن يتحروا تأسيسها على «جهة جامعة ما» لا تصلح في زعمهم وفى ضوء السائد المألوف من تصوراتهم للإيهام بثبوت التماثل المزعوم بها (بين القرآن والشعر) فحسب، بل للتمويه في الوقت ذاته على حقيقة إحساسهم بالتباين بينهما من جهة، وعلى إخفاقهم المهين فى قضية التحدى والمعاجزة من جهة أخرى!!

***

ما هى تلك الجامعة بين الشعر والقرآن فى منظورهم إذن؟

لقد حاول الإجابة عن هذا التساؤل غير قليل من المفسرين والباحثين فى قضية الإعجاز القرآنى ، غير أن أكثرهم قد ارتضى القول بأن «**الوزن العروضى**» الماثل فى بعض آيات القرآن وعباراته هو تلك الجهة التى ركز عليها المشركون فى تلفيق شبهة التماثل بينه وبين الشعر، هذا ما يبدو واضحًا ـ على سبيل المثال ـ فى قول أبى سليمان الخطابى:

«ثم صار المعاندون له ممن كفروا به وأنكروه يقولون مرة: إنه شعر لما رأوه كلامًا منظومًا، ومرة إنه سحر لما رأوه معجوزًا عنه غير مقدور عليه»[1].

وهذا بعينه ما رجحه الباقلانى في تفسيره لوجه إثارة المشركين لتلك التهمة؛ فهو يصرّح بأن قولهم عن الرسول ﷺ إنه شاعر وعن القرآن إنه شعر «**إما أن يكون محمولاً** على أنهم نسبوه فى القرآن إلى أن الذى أتاهم به هو من قبيل الشعر الذى يتعارفونه على الأعاريض المحصورة المألوفة، **أو يكون محمولا** على ما

(١) بيان إعجاز القرآن : ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن (٢٨) دار المعارف ١٩٩١م.

كان يطلق الفلاسفة على حكمائهم وأهل الفطنة منهم في وصفهم إياهم بالشعر لدقة نظرهم في الكلام وطرق لهم فى المنطق، وإن كان ذلك الباب خارجًا عما هو عند العرب شعر على الحقيقة، **أو يكون محمولاً** على أنه أطلق من بعض الضعفاء منهم فى معرفة أوزان الشعر وهو أبعد الاحتمالات. . .»[1].

فالباقلانى إذ يصرح بإمكانية حمل تهمة الشعر على كل وجه من الوجوه الثلاثة التى ذكرها يصرح فى الوقت ذاته بأن الوجه الثالث أبعدها وأن الثانى «خارج عما هو عند العرب شعر» ،الأمر الذي يدل بوضوح على أن **الوزن العروضى** ـ الذى آثر البدء بذكره ـ هو فى تصوره جهة الاتهام أو الركيزة الأساسية للطعن بتلك التهمة. ولعل مما يدعم ذلك أنه لم يعول إلا على الوزن فى ثنايا وقفته الطويلة التى تصدى فيها ـ بعد النص السابق مباشرة ـ للدفاع عن القرآن وتبرئة ساحته من تلك التهمة، وهذا ما يبدو بجلاء فى قوله فى ختام هذا الدفاع:

«. . ليس في القرآن من الموزون الذي وصفناه أولا، وهو الذي شرطنا فيه التعادل فى الأجزاء غير الاختلاف الواقع فى التقفية، ويبين ذلك أن القرآن خارج عن الوزن الذى بينّا. .»[2].

وقد نحا كثير من المفسرين هذا المنحى في تفسيرهم للآيات القرآنية النافية لتهمة الشعر الداحضة لمزاعم مروجيها، فعند تفسير الزمخشرى ـ على سبيل المثال ـ لقوله عز وجل: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ [يس: ٦٩] يقول:

«أى وما علمناه بتعليم القرآن الشعر على معنى أن القرآن ليس بشعر، وأين هو من الشعر ،والشعر إنما هو كلام موزون مقفى يدل على معنى؟ فأين الوزن؟

---

(١) إعجاز القرآن . على هامش الإتقان فى علوم القرآن (ج١/ ٧٦ـ٧٧) المكتبة الثقافية ببيروت ١٩٧٣ م.

(٢) انظر السابق (٧٧ـ٨٥).

وأين التقفيـة؟ وأين المعانى التى ينتجها الشعراء من معـانيه؟ وأين نظم كلامهم من نظمه وأساليبه؟ فإذًا لا مناسبة بينه وبين الشعر. . .»[1].

ويقول العلامة أبو السعود في تفسيره للآية ذاتها:

«. . إن القـرآن ليس بشعـر، فإن الشـعر كـلام متكلف مـوضوع، ومـقال مزخـرف مصنوع منسوج على منوال الوزن والقـافية، مبنى على خـيالات وأوهام واهية، فأين ذلك من التنزيل الجليل الخطر، المنزه عن مماثلة كلام البشر؟!. .»[2].

ومن منطلق التركيز على جانب الوزن فى تصـور تلك التهمة يتوقف الشيخ محمـد الطاهر بن عاشور لبيـان السر فى إيثار نفي صفة الإيمـان عن المشركين بعد نفى كون القرآن قول شاعر ، ثم نفى صفة التذكر عنهم بعد نفى كونه قول كاهن، وذلك فى قوله تبارك وتعالى : ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحاقة ٤١، ٤٢] فيقول:

«. . **لأن نفى كون القرآن قول شاعر بديهى**؛ إذ ليس فيه ما يشبه الشعر من اتزان أجزائه في المتـحرك والساكـن والتقفـية المتمـاثلة في جميع أواخـر الأجزاء، فادعاؤهم أنه قـول شاعر بهتان متعـمّد ينادى على أنهم لا يرجى إيمانهم، **وأمـا انتفاء كون القرآن قول كـاهن فمحتاج إلى أدنى تأمل**، إذ قد يشبه فى بادئ الرأى على السامع من حـيث إنه كلام منثور مؤلف على فواصـل، ويؤلف كلام الكهان على أسجاع مثناة متماثلة زوجين زوجين. . .»[3].

والواقع أن الوزن العروضى لم يكن ـ كما تصور هؤلاء المفسرون ـ هو جهة التماثل الجـامعة بين القرآن والشـعر فى منظور المشركين الذين أطلقوا تلك التـهمة

---

(١) الكشاف (ج٣/ ٢٩٢).

(٢) تفسير أبي السعود (ج٧/ ١٧٧).

(٣) التـحرير والتنـوير (ج١٤/ ١٤٣) ، وانظر فى ذيوع هذا الرأى بين المفـسرين : المفـردات (٢٦٢) ، وروح المعانى (ج١٩/ ١٤٥).

ولعله ليس أدل على ذلك من أن بعض هؤلاء المشركين عندما ركزوا على جانب الوزن صرحوا بنفى تلك التهمة عن القرآن، هذا ما نجده واضحًا فى قول الوليد بن المغيرة فى مباينة القرآن للشعر:

«لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بشعر»[1].

قد يقال: إن مقولة الوليد هذه لا تعدو أن تكون شهادة صدق أدلى بها فى موقف بعينه فرد واحد من هؤلاء المشركين، فكيف يمكن التعويل عليها في تصور جهة الاتهام في تهمة قوامها الكذب رددها في مواقف أخرى ـ دون ريب ـ غير واحد منهم؟! **غير أن هذا القول لا يصح** في ضوء ما هو معلوم من أن الوليد قد كان ذا سن ومكانة في قريش، وأنه لم يقل هذا القول إلا عندما اجتمع إليه نفر منهم للتشاور فى أمر النبى ﷺ والتفكير فى اختلاق «تهمة ما» يتفقون على إلصاقها به، ويقدرون رواجها فى الوقت ذاته بين وفود العرب التى ينتظرون مقدمها في موسم الحج[2]، ومؤدى ذلك أن صدقه فى قوله عن القرآن: «وما هو بشعر» لم يكن نابعًا عن رغبته فى إنصاف الحقيقة، بل عن يأسه من إمكان تزييفها، وذلك من منطلق وعيه بأن الوزن الذى هو أبرز خصائص الشعر سوف يقف حائلاً دون ترويج دعوى المماثلة بينه وبين القرآن.

على أن الوليد بن المغيرة لم يتفرد بمقولته تلك؛ فلقد قال مثلها أنيس بن جنادة لأخيه أبى ذر الغفارى رضي الله عنه (وكان أنيس أحد شعراء العرب) ـ يقول أبو ذر فى قصة إسلامه: «قال لى أخى أنيس: إن لى حاجة إلي مكة، فانطلق ، فراث ، فقلت: ما حبسك؟ قال: لقيت رجلا يقول: إن الله أرسله، فقلت: فما يقول الناس؟ قال : يقولون شاعر ساحر كاهن ، ثم قال: تالله لقد وضعت قوله على

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (ج١/ ٢٤٣، ٢٤٤).

(٢) انظر : السابق ـ نفسه.

أقـراء الشعـر فلم يلتئم على لـسان أحـد ، ولقد سـمعت قـول الكهنة فمـا هو بقولهم.. تالله إنه لصادق وإنهم لكاذبون»[1].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن بعض الباحثين الذين توقفوا ـ قديما وحديثًا ـ لتفسير تلك التهمة قد بادروا إلى نفى علاقتها بالوزن العروضى، وكشفوا عن وجه الخطأ أو القصـور فى إرجاعـها إليه، غـير أنهم قد اخـتلفوا بعـد ذلك في تحديد الخصيصة المشتركـة (بين القرآن والشعر) التى كانت ـ دون ذلك الوزن ـ هى قاعدة إطلاقها وركيزة ترويجها في زعم المشركين:

فـمنهم من ذهب إلى أن تلك الخصـيصة هى **التخـييل**، فهو يقول فى رده على من أرجع هذه التهمـة إلى الوزن: إن المشركين «لم يقصدوا هذا المقصـد فيما رموه به ﷺ؛ إذ لا يخـفى على الأغبـياء من العجم فـضلاً عن بلغـاء العرب أن القرآن الذى جاء به ﷺ ليس على أساليب الشعـر، والظاهر أنهم قصدوا رميه بأنه ـ وحاشاه ثـم حاشاه ـ **يأتى بكلام مخـيل لا حقيـقة له**، ولما كان ذلك غـالبًا فى الشـعراء الذين يأتون بالمـنظوم من الكلام عبـروا عنه ﷺ بشـاعر وعـما جـاء به الشعر»[2].

والأمر الذي ينبغى مـلاحظته في هذا النص هو أن صاحبه قد استخدم مادة التخييل «مخيّل» لا بمدلولها الفنى الذى تـقترن به مع تصوير المعانى أو تقديمها في صور محسوسة تثير الخـيال وتحرك الوجدان ـ بل بمدلولها الآخر الذى تتقابل به مع الحقيقة وتترادف مع الكذب[3] ، وهذا ما يدل عليه وصف الكلام في ذلك النص بكونه «لا حقـيقة له» بعد وصـفه بكونه «مخيـلاً» ؛ ومؤدى ذلك أن الكذب لدى

---

(١) الرسالة الشافية / ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن (١٢٤، ١٢٥).

(٢) روح المعانى (ج١٩/ ١٤٦).

(٣) انظر في استخدام مـصطلح التخييل فى هذين المعنيين في موروثنا القـديم: أسرار البلاغة لعبد القاهر الجـرجانى. بشرح د/ محمد عبـد المنعم خفاجى (ج٢ / ١٤٥ ـ ١٥٩) وكذا: كتاب أرسطاطاليس فى الشعر . د/ شكرى عياد (٢٥٨ ـ ٢٦١).

صاحب هذا الرأى هو الجهة الجامعة أو الصفة المشتركة بين القرآن والشعر فى منظور الطاعنين فى القرآن بتلك التهمة؛ وهذا بعينه ما صرح به بعض المفسرين حيث يقول فى بيانه لوجه إطلاق المشركين لتلك التهمة على الرسول ﷺ.

«.. لم يقصدوا هذا المقصد (الوزن العروضى) فيما رموه به؛ وذلك أنه ظاهر من هذا الكلام أنه ليس على أساليب الشعر، ولا يخفى ذلك على الأغتام من العجم، فضلاً عن بلغاء العرب، وإنما رموه بالكذب، فإن الشعر يعبر به عن الكذب والشاعر الكاذب، حتى سمى قومه الأدلة الكاذبة شعرًا..»[1].

أما سيد قطب ـ رحمه الله ـ فقد ذهب إلى أن **التصوير الفنى** في القرآن هو الجهة التى ارتكز عليها مشركو مكة فى ترديدهم تهمة المماثلة بينه وبين الشعر ـ يقول في ذلك: «جاء فى القرآن الكريم: ﴿**وما علمناه الشعر وما ينبغى له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين**﴾ وجاء فيه حكاية عن كفار العرب: ﴿**بل افتراه بل هو شاعر**﴾ وصدق القرآن الكريم، فليس هذا النسق شعرًا، ولكن العرب لم يكونوا مجانين ولا جاهلين بخصائص الشعر يوم قالوا عن هذا النسق العالى: إنه شعر!! **لقد راع خيالهم بما فيه من تصوير بارع**، وسحر وجدانهم بما فيه من منطق ساحر، وأخذ أسماعهم بما فيه من إيقاع جميل، وتلك خصائص الشعر الأساسية إذا نحن أغفلنا القافية والتفاعيل..»[2].

أما الدكتورة عائشة عبدالرحمن فقد انتهت فى وقفتها لتفسير تلك التهمة إلى أن **قوة تأثير اللغة الفنية** فى النفوس وهيمنة سلطانها على العقول هى أساس المماثلة ـ فى زعم مروجى تلك التهمة ـ بين القرآن والشعر ـ هذا ما تقرره حيث تقول في نفى تعلق تلك التهمة بجانب الوزن:

«وما نعلم المشركين خاضوا أيام المبعث فى أن من آيات القرآن ما يمكن أن يحمل على وزن الشعر ونسقه حين قالوا: إن محمدًا شاعر، **وإنما أرادوا أن للقرآن**

---

(١) تفسير روح البيان (ج٦ / ٣١٥).

(٢) التصوير الفنى فى القرآن (١٠٢) دار الشروق ١٩٨٠م.

مثل وقع الشعر على الوجدان والعقل، وذهبوا إلى وصف سحر بيانه بما ألفوا من وصف روائع شعرهم..»[1].

والواقع أننا نسلم مع أصحاب الآراء السابقة بعدم تعلق تهمة الشعر بخصيصة الوزن، غير أننا لا نسلم فى الوقت ذاته بأنها قد تعلقت بإحدى الخصائص الثلاث التى تمخضت عنها تلك الآراء (التخييل أو الكذب ـ التصوير الفنى ـ قوة التأثير) .

أما الأولى :فلأن التسليم بارتداد تلك التهمة إليها يقتضى أن ما قصده المشركون بها هو بعينه ما قصدوه بتهمة الافتراء، أعنى رميه ﷺ بالكذب والاختلاق ـ وهذا غير مسلم به فى ضوء ما هو معلوم من أنهم كانوا حريصين أشد الحرص على تعديد جهات الطعن فى البيان القرآنى، يضاف إلى ذلك أن هذا البيان عند حكايته لهاتين التهمتين قد عطف إحداهما على الأخرى بالحرف المفيد لمعنى الإضراب «بل» ﴿بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ [الأنبياء:٥] ، الأمر الذي يدل دلالة قاطعة على مغايرة كل من هاتين التهمتين للأخرى من حيث زاوية الطعن بها فى القرآن الكريم.

وأما الخصيصتان الأخريان : (التصوير ـ قوة التأثير) فما نحسب أن المشركين قد عوّلوا على إحداها فى إطلاقهم لتلك التهمة؛ إذ لو فعلوا ذلك لغدا ما رددوه بصددها صورة من صور الإشادة بالقرآن لا محاولة من محاولات الطعن فيه!! ونحن بذلك لا ننفى إحساس هؤلاء المشركين بأن كلا من هاتين الخصيصتين قد بلغت ذروة تحققها أو تألقها فى لغة البيان القرآنى. وإنما الذى ننفيه هو أنهم قد كانوا من سذاجة الرأى وفساد التدبير بحيث يعمدون إلى تعرية إحساسهم هذا فى مقام الاتهام أو الطعن الحافز بحكم دوافعه وغاياته إلى افتعال الثغرات أو المثالب لا إلى إبراز المزايا أو المناقب ـ أجل، لقد أفصح الوليد بن المغيرة عن هذا الإحساس

---

(١) الإعجاز البيانى للقرآن (٤٩) دار المعارف ١٩٨٧م.

حين قال في موقفه السابق: « إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى»، غير أنه لم يفصح عنه كما تبين لنا منذ قليل إلا لكى يبرهن به لأولئك النفر الذين اجتمعوا إليه من قريش على أن ما عرضوه من تهم لن يلقى رواجًا بين وفود العرب : «وما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عُرف أنه باطل»، أما عندما وكلوا إليه مهمة استنباط التهمة التى يرتضيها فإنه قد حاول الروغان من هذا الإحساس وأخذ يغالبه مغالبة صور البيان القرآنى أثرها عليه أبلغ تصوير بقوله عنه: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾﴾ [المدثر: ١٨-٢٤][1].

***

كيف استطاع هؤلاء المشركون، إذن، تلفيق تلك التهمة؟

في تصورى أن الطريق الأمثل إلي تصور طبيعة تلك التهمة هو تأمل كيفية الرد عليها فى القرآن الكريم ؛ إذ من البديهى أنه قد ركز فى نفيه لها ودحضه لمزاعم مروجيها على تقويض أساسها المزعوم الذى بنوا عليه دعوى المماثلة بينه وبين الشعر ـ فلنتأمل»:

لقد **بدأ البيان القرآنى** ـ بحسب ترتيب النزول ـ بنفى تعلم الرسول ﷺ قول

---

(١) تجدر الإشارة هنا إلى أن الوليد بن المغيرة حين أطلق مقولة السحر لم يكن يقصد ـ كما تردد كثيراً ـ سحر بيان القرآن وسلطانه الآسر للنفوس ؛ إذ لو كان هذا مراده لما أصبحت تلك المقولة وجهًا من وجوه الطعن فى القرآن، ولغدت وسيلة لاستمالة العرب إليه لا لصرف أنظارهم عنه، ولعل فى وصف السحر في الآية الكريمة بأنه «سحر يؤثر» ما يومئ إلي أن ما قصده الوليد هو أن محمداً قد نقل القرآن أو أثره عن بعض السحرة الذين كانت لأقوالهم وأفعالهم آثارها الضارة، وهذا ما يوضحه قول الوليد فى رواية ابن هشام : «جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته» انظر : السيرة النبوية (٢٤٤).

الشعر، وذلك فى قـوله سبحانه : ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ [يس: ٦٩] ، ثم حكى هذه التهمة عن الكفار وشفعها بالرد عليها في ثلاثة مواطن هى قوله عز وجل:

﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الصافات: ٣٦ ، ٣٧].

وقوله : ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ [الأنبياء: ٥، ٦].

وقـــوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الطور: ٣٠، ٣١].

ثم نفى ـ في موضع آخـر ـ كون القرآن من إبداع أحد الشـعراء، وذلك فى قوله سبحانه: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الحاقة: ٤١].

ولعل أول ما يسترعـى الانتباه فى تلك المواضع القرآنية الخمـسة التى سبقت لدفع تهمة الشعر هو أنها قد ركزت لا على نفى صفة الشعرية عن النص القرآنى، بل على نفى صـفة الشـاعرية عن المنزل عليـه ﷺ، يتجلى ذلك التـركيـز بصورة واضحـة فى المواضع الأربعة الأولى التى كان الإخـبار فيـها ـ إثباتًا أو نفـيًا ـ عن الرسول ﷺ، كما يتجلى بصورة أوضح فى الموضع الخامس الذى كان الإخبار فيه عن القرآن ؛ حـيث عدلت الآية الكريمة فى هذا الموضع عن نفى كونه شـعرًا «وما هو بشعر»، إلى نفى كونه قول شاعر : ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾[1]!!

هل نستطيع القول ـ مستأنسين بهذا التركيز ـ : بأن النص القرآنى في ذاته لم يكن هو جهة الاتهـام أو زاوية الطعن بتلك التهمة، وأن الذين أطلقـوا إنما قصدوا

---

(١) لقد ذكر صاحب «التحرير والتنويـر» أن قول المشركين عن الرسول ﷺ : «بل هو شاعر» يقتضى لا مـحالة أنهم قالوا عن القرآن : هو شـعر ، انظر (ج٢٣ / ٥٦) ـ والواقع أنا لا نسلم بأن القول بأولى العبارتين يستلزم ضرورة القول بالثانية، فالفرق دقيق بين القولين كما سنرى.

اتهامه ﷺ بصفة الشاعرية كى يتوصلوا عن طريق الإيهام بثبوتها لا إلى الزعم بأن القرآن الذى يتلوه هو من جنس الشعر الذى يتعارفونه بينهم ، بل إلى الزعم بأن مصدره لديه هو مصدر هذا الشعر؟

الواقع أن هذا القول هو ما يترجح لدىّ ، ولعل مما يدعم هذا الترجيح ما سلفت الإشارة إليه من أنَّ بعض ذوى المكانة والخبرة بفن الشعر من هؤلاء المشركين (الوليد بن المغيرة ـ أنيس بن جنادة) قد صرحوا بأن القرآن ليس من قبيل الشعر، الأمر الذى يبعد معه أن يكون الذين تشبثوا بترديد تلك التهمة، وحاولوا ترويجها بين وفود العرب، لم يقصدوا بها سوى وصف القرآن بتلك الصفة التى تتعالى الأصوات من بين ظهرانيهم بنفيها عنه!! فإذا أضفنا إلى ذلك أن هذا القرآن لم يحك لنا فى أى موطن من مواطن رده لتلك التهمة أن هؤلاء المشركين قد قالوا عنه: ««هو شعر»، على حين أنه قد حكى في ثلاثة من تلك المواطن ـ كما رأينا منذ قليل ـ قولهم عن الرسول ﷺ: «هو شاعر» إذا أضفنا ذلك تأكد لدينا القول بأن هذه التهمة كما دبرها وقدر رواجها هؤلاء المشركون قد كانت طعنًا فى سند القرآن لا فى متنه باصطلاح علم الحديث، أو فى المرسِل أو الباث لا فى الرسالة أو الشفرة باصطلاح علم الاتصال.

وفى تصورى أن مشركى مكة حين آثروا وصف القرآن بكونه «قول شاعر» إنما رموا إلى الزعم ليس فقط بنفى كونه وحيا من الخالق عز وجل، بل بإثبات كونه من وحى أحد الشياطين (وسوف يتبين لنا بعد قليل أن القرآن قد ركز فى أكثر من مواطن رده لتلك التهمة على نفى كونه «قول شيطان») ، وأنهم قد قدروا رواج هذا الزعم فى مجتمعهم فى ظلال ذيوع ذلك المعتقد الأسطورى الذي كان العرب آنذاك يفسرون به مصادر الإلهام الشعرى ، حيث كانوا يتوهمون أن لكل شاعر شيطانًا من الجن يوحى إليه المعانى أو يقول الشعر على لسانه !!

لقد نشط خيال العرب فى الجاهلية فى تصورهم لعالم الجن والشياطين ، فقد كانوا يعتقدون أن هؤلاء الشياطين يعيشون ـ مثلهم ـ فى جماعات وقبائل ثم

أسكنوهم أودية متخيلة أشهرها «عبقر» و «وبار» ثم أفاضوا فى الحديث عما توهموه من تأثيرهم فى عالم الإنس، فتحدثوا عن أثر عشقهم فى الصرع، وعمن استهوته الشياطين أو قتلته، وعن شياطين الشعراء، وشيطان ضعفة النُّسَّاك والعُبَّاد، وعن مناكحة بعض الأعراب للجن، وعن الإنسان الذى يكون له رئىٌّ منهم يخبره ببعض الأخبار [1].. إلخ.

وقد سجلت لنا أشعارهم كثيراً من أسماء شياطين الشعراء، فشيطان الأعشى يدعى «مِسْحَلاً» ، وهو يفتخر بحسن تلقيه الشعر عنه فيقول:

وما كنت شاحرداً ولكن حسبتنى ∴ إذا (مسحل) أسدى لى القول أعلق
شريكان فيها بيننا من هوادة ∴ صفيان إنسى وجن موفق
يقول فلا أعيا بقول يقوله ∴ كفانى لا عِىٌّ ولا هو أخرق [2]

وقد صرح حسان بن ثابت بأن شيطانه من قبيلة «بنى الشيصَبان» وذلك حيث يقول مفتخراً:

إذا ما ترعرع فينا الغلام ∴ فليس يقال له من هُوَه
إذا لم يسد قبل شد الإزار ∴ فذلك فينا الذى لا هُوَه
ولى صاحب من بنى الشيصبا ∴ ن فطوراً أقول وطوراً هوه

وقد حفظت لنا بعض مصادر الأدب كثيراً من الأخبار والروايات الدالة على أن هذا التفسير الأسطورى لطبيعة الإلهام الشعرى قد كان هو السائد بين العرب فى العصر الجاهلى، وظل كذلك حقبة طويلة بعد ظهور الإسلام.

---

(١) انظر: الحيوان (ج٦ / ١٧٢) ، وما بعدها ط ٢ / ١٩٦٧ م.

(٢) انظر : جمهرة أشعار العرب (٧٢) دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٩م. وكلمة «شاحرداً» فارسية ومعناها الصبى المتعلم.

فمن تلك الروايات ما يرويه مظعون بن مظعون عن رجل من أهل الشام أنه قال له: «بينما أنا أسير فى طريقى ببقعة من الأرض لا أنيس بها، إذ رُفعت لى نار فدفعت إليها، فإذا بخيمة ، وإذا بفنائها شيخ كبير ومعه صبية صغار، فسلمت، ثم أنخْت راحلتى أنسًا به تلك الساعة.. ثم تحدثنا طويلاً إلى أن قلت: أتروى من أشعار العرب شيئًا؟ قال: نعم. سلْ عن أيها شئت؟ فقلت: فأنشدنى للنابغة قال: أتحب أن أنشدك من شعرى أنا؟ قلت: نعم، فاندفع ينشد لامرئ القيس والنابغة وعبيد، ثم اندفع ينشد للأعشى فقلت: لقد سمعت بهذا الشعر!! قال: للأعشى؟ قلت: نعم، قال: فأنا صاحبه، قلت: فما اسمك؟ قال: مسحل السكران بن جندل، فعرفت أنه من الجن، فبت ليلة الله أعلم بها، ثم قلت له: من أشعر العرب؟ قال: ارْوِ قولا لافظ بن لاحظ وهياب وهبيد وهادر بن ماهر، قلت: هذه أسماء لا أعرفها، قال: أجل، فأما لافظ فصاحب امرئ القيس، وأما هبيد فصاحب عبيد بن الأبرص وبشر، وأما هادر فصاحب زياد الذبيانى وهو الذى استنبغه..»[٢].

ومن ذلك أيضًا ما يرويه مطرف الكنانى عن ابن دأب حيث يقول: حدثنى رجل من أهل زرود عن أبيه عن جده قال: خرجت فى طلب لقاح لى على فحل كأنه فدن يمر بى يسبق الريح، حتى رفعت إلى خيمة، وإذا بفنائها شيخ كبير، فسلمت عليه فلم يرد على، وقال: من أين؟ وإلى أين؟ فاستحمقته إذ بخل برد السلام وأسرع إلى السؤال، فقلت: من ههنا وأشرت إلى خلفى، وإلى ههنا وأشرت إلى أمامى، فقال: أما من ههنا فنعم، وأما إلى ههنا فوالله ما أراك تبهج بذلك إلا أن يسهل عليك مداراة من ترد عليه، قلت: وكيف ذلك أيها الشيخ؟ قال: لأن الشكل غير شكلك. والزى غير زيك، فضرب قلبى أنه من الجن،

---

(١) الحيوان (ج٦ / ٢٣١).

(٢) جمهرة أشعار العرب (٦٠ ـ ٦٢).

فـقلت: أتروى من أشعـار العـرب شيـئًا؟ قـال: نعم وأقـول، قلت: فأنشـدنى كالمستهزئ به، فأنشدنى قول امرئ القيس:

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل. . .

فلما فرغ قلت: لو أن امرأ القيس ينشر لردعك عن هذا الكلام، فقال: ماذا تقول؟ قلت: هذا لامرئ القيس!! قال: لستُ أول من كُـفر نعمة أسداها، قلت: ألا تستـحى أيها الشيخ، ألمثـل امرئ القيس يقـال هذا؟! قال: أنا والله منحتـه ما أعجبك منه، قلت: فـما اسمك؟ قال: لافظ بن لاحظ . . فاستحـمقت نفسى له بعدما استحمقتـه لها، وأنست به لطول محاورتى إياه ، وقد عرفت أنه من الجن، فقلت: من أشعر العرب؟ فانشأ يقول:

ذهب ابن حجْر بالـقريض وقوله
ولقـد أجـاد فـمـا يعـاب زياد
للـه هادر إذ يـجـود بقـوله
إن ابن مـاهر بـعـدها لجـواد

قلت: من هادر؟ قـال: صاحـب زياد الذبيانى، وهو أشـعـر الجن وأضنهم بشعره، فالعجب منه كيف سلسل لأخى ذبيان به!!. .»[1].

وقد ظل كثير من الشعراء بعد ظهور الإسلام يتخذ من نسبة شعره إلي أشعر الشيـاطين أو أكبرهم وسـيلة لفخـره بهذا الشعـر، من ذلك مثـلا قول أبى النجم العجلى:

إنى وكل شـاعـر من البـشـر .·. شـيطانه أنثى وشـيطانى ذكـر

---

(١) السابق ـ نفسه.

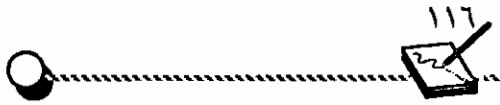

وقول الفرزدق في مدح أسد بن عبدالله:

ليبلغن أبا الأشبال مدحتنا ∴ من كان بالغور أو مروى خراسانا

كأنها الذهب العقيان حبّرها ∴ لسان أشعر خلق الله إنسانا

وكذا قول الراجز:

إنى وإن كنت صغير السن ∴ وكان فى العين نبوٌّ عنّى

فإن شيطانى كبير الجن ∴ يذهب بى فى الشعر كل فن [1]

نستطيع القول ـ إذن ـ فى ظل ذيوع هذا التفسير الأسطورى لرافد الإلهام الشعرى: إن غاية المشركين من توجيه تهمة الشعر إلي الرسول ﷺ لم تكن إثبات كون القرآن الذى ينطق به من جنس الشعر (لوعيهم بأن ذلك لا يروج فى مجتمع بضاعته الشعر) بل إثبات كونه ﷺ قد استوحاه ـ شأنه فى ذلك شأن سائر الشعراء ـ من أحد الشياطين.

ولعل مما يدعم هذا القول ، ما ذكره عتبة بن ربيعة للرسول ﷺ حين جاءه لمفاوضته كى يرده عما يدعو إليه ، فلقد كان مما قاله له: «.. وإن كان هذا الذى يأتيك رَئِيًا من الجن لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه»[2].

ولعل مما يدعمه كذلك هذا الحديث النبوى المروى بطرق مختلفة في سبب نزول سورة الضحى ، فلقد روى البخارى عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه أنه قال: «احتبس جبريل عليه السلام عن النبى ﷺ فقالت امرأة من قريش : أبطأ عليه شيطانه، فنزلت : ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ .

---

(١) انظر : فى النماذج السابقة ونظائرها ، الحيوان (ج٦ / ٢٢٧ ـ ٢٢٩ .

(٢) السيرة النبوية (ج١ / ٢٦١).

وروى الحاكم عن زيد بن أرقم أنه قال: « قالت امرأة أبى لهب لما مكث النبى ﷺ أيامًا لم ينزل عليه الوحى: يا محمد، ما أرى شيطانك إلا قد قلاك، فنزلت [والضحى][1].

لقد أشرنا فى صدر هذا الفصل إلى أن المجتمع الذى ترددت فيه تلك التهمة قد كان يدرك يقينًا حقيقة التباين بين القرآن والشعر، وهنا نضيف أنه لهذا السبب ـ فيما يبدو لى ـ عدل المشركون فى ترديدها عن الادعاء بأن النص القرآنى فى ذاته شعر إلى الادعاء بأن مصدره هو مصدر الشعر، فكأنهم قد حاولوا استثمار غيبية مصدر القرآن [الوحى] فى إشاعة الزعم بنفيه والادعاء بأنه ليس شيئًا سوى هذا المصدر الغيبى الآخر الذى يمتاح منه الشعراء فى زعمهم (عالم الشياطين)!!

***

وبعد ...

فإذا كانت هذه التهمة ـ كما رجحنا ـ قد بنيت على أساس الزعم بأن البيان القرآنى قول شاعر يستوحى ما يقول من أحد الشياطين فما هى ملامح المسلك الذي سلكه هذا البيان في تقويضه لذلك الأساس؟

لعل من أبرز هذه الملامح ما يلى:

١ ـ المزاوجة بين إثبات حقيقة الوحى ونفى كون القران قول شيطان أو قول شاعر.

٢ ـ إبراز دور الشهب ـ عند البعثة النبوية ـ فى منع تمكن الشياطين من السماء الدنيا.

٣ ـ تأكيد عجز الجن والإنس ـ معًا ـ عن الإتيان بمثل القرآن.

---

(١) انظر: فتح البارى (ج٣ / ١١ ـ ١٣) ، وكذا أسباب النزول لأبى الحسن النيسابورى (٣٠١) دار الكتب العلمية ببيروت.

ونود ـ فيما يلى ـ أن نتوقف وقفة موجزة لتجلية كل ملمح من تلك الملامح الثلاثة، والكشف عن طبيعة دوره فى دحض تهمة الشعر:

أولا: المزاوجة بين إثبات حقيقة الوحى ونفى كون القرآن قول شيطان أو قول شاعر:

لقد تمثلت تلك المزاوجة ـ التى تومئ فى حد ذاتها إلى جهة الاتهام فى تلك التهمة ـ فى السياقات الثلاثة التالية:

١ ـ قوله عز وجل في سورة التكوير:

﴿فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [التكوير: ١٥ـ٢٧].

٢ ـ وقوله في سورة الشعراء:

﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ....وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ ...هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢ : ١٩٥ ، ٢١٠ : ٢١٢ ، ٢٢١ـ٢٢٦].

٣ ـ وقوله سبحانه وتعالى فى سورة الحاقة:

﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [الحاقة: ٣٨ ـ ٤٣].

لقد آثرنا إيراد هذه السياقات الثلاثة بحسب ترتيبها فى النزول كى نستجلى

من خلال تأملها طبيعة المنهج الذى سلكه البيـان القرآنى فى دحضه لتلك التهمة ـ فنحن نلاحظ :

* أنه قـد سلك فى نفيـه لهـا مسلكًا مـتـدرجًا ؛ فلقـد نفى فى أول هذه السياقات كون القرآن من وحى أحد الشياطين «**وما هو بقول شيطان رجيم**» ، أى أنه بدأ رده على تلك التـهـمة بـتقـويض أسـاسهـا الأسطورى الذى ارتكز عليـه المشركون فى محاولة ترويجهـا، ثم نفى فى السياق الثانى تنزل الشياطين به «**ومـا تنزلت به الشياطين**» كى يستأصل ما قد يتشبث به هؤلاء المشركون في هذا الصدد من وهم؛ إذ ربما زعموا أنـهم إنما نسبوا القرآن إلى الشيـاطين لا على أساس أنهم قائلوه حـقيقة بل على أسـاس أنهم وسيلة نقله أو واسطة تنزله على محـمد!! ثم نفى فى ثالث السياقات كونه قول شاعر «**وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون**» ومن ثم وقع هذا النفى الأخيـر موقع النتيجـة المنطقية التى بنيت على مقـدمتين، فكأنه قيل لمن يتشبثون بترديد تلك التهـمة: إذا لم يكن أحد الشياطين قد قال هذا القرآن أو تنزل به على الرسول ﷺ فكيف تسنى لكم الزعم ـ فى ظل معتقدكم فى طبيعة الإلهام الشعرى ـ بأنه قول شاعر؟!!

* أنه قد سلك ذات المسلـك المتدرج فى إثبات نقـيض ما تود تلك التهـمة إثباته (حـقيقـة الوحى القرآنى) ومن ثم كـانت المواءمة والتـآزر بين دلالة الإثبات ودلالة النفى فى كل سيـاق من السياقات الثلاثة، فلقـد أثبت أولها حقيـقة صدور القرآن عن ملك الوحى فى مقابل نفى صدوره عن أحد الشياطين «**إنه لقول رسول كريم ـ وما هو بقـول شيطان**» وأثبت ثانيها حقـيقة نزول رسول الوحى به من الملأ الأعلى فى مقابل نفـى تنزل الشياطين به «**وإنه لتنزيل رب العـالمين. نزل به الروح الأمين على قلبك.. وما تنزلت به الشياطين**»، ثم أثبت الأخير حقيقة إرساله ـ عن طريق الوحى ـ على لسان المنزل عليه ﷺ فى مقـابل نفى كونه قول شاعر: «**إنـه لقول رسول كريم** [1] **ـ وما هو بقول شاعر**».

---

(١) لقد اختلف المفسرون في تحـديد المراد بالرسول فى هذه السورة وفى سورة التكوير ، فلقد قيل: هو فيهما جبريل عليه السلام، وقيل أيضًا: بل هو محمد ﷺ، وقيل كذلك =

* أن السياق الأخير هو أقصر السياقات الثلاثة، فبينما استغرق سياق «التكوير» خمس عشرة آية، واستغرق سياق «الشعراء» ستًّا وثلاثين ـ لم يستغرق سياق «الحاقة» سوى ست آيات، ولعل مرد ذلك ـ والله أعلم ـ هو غيبية الحقيقة التى أريد إثباتها فى كل من السياقين الأولين ومحسوسيتها فى السياق الأخير، فصدور القرآن عن رسول الوحى، وكذا نزوله به من الملأ الأعلى كل منهما أمر غيبى قد يتمادى المشركون ـ لبعده عن عالم الحس ـ فى إنكاره، وفى التشبث بمحاولة إثبات مقابله الغيبى الذى يزعمونه (كون القرآن قول شيطان ـ تنزل الشياطين به على الرسول) ، ومن ثم لم يكتف كل من السياقين الأولين بإثبات ما سيق لإثباته ونفى مقابله المزعوم، بل لقد شفع الإثبات والنفى ـ وهذا سر طوله ـ بما يؤكد صدقها، ويستأصل دواعى اللجاجة والمراء حولهما، أما السياق الأول (التكوير) فقد اعتمد فى تأكيد نسبة القرآن إلى ملك الوحى على المقابلة بين تعديد صفاته عليه السلام وإفراد وصف الشيطان، فبينما وصف جبريل عليه السلام فى هذا السياق بست صفات تتآزر فى الدلالة على استئثاره بالوحى القرآنى (رسول ـ كريم ـ ذى قوة ـ عند ذى العرش مكين ـ مطاع ـ أمين) وصف الشياطين بوصف واحد دال على بعده أو طرده عن منازل الملأ الأعلى (رجيم)، أما السياق الثانى (الشعراء) فقد ارتكز فى تأكيده لحقيقة نزول الوحى القرآنى من الملأ الأعلى إلى المنزل عليه ﷺ على المقابلة بين إيثار مادة النزول الموحية بالصدق فى إثبات هذه

= ـ وهو ما رجحه أكثرهم ـ : إن المراد به فى سورة الحاقة محمد ﷺ بدليل نفى السياق بعد ذكره كون القرآن قول شاعر أو قول كاهن، ومعلوم أن الكفار لم يصفوا جبريل عليه السلام بالشعر أو الكهانة، وإنما كانوا يصفون بهما محمدًا ﷺ، أما فى سورة التكوير فإن المراد به جبريل عليه السلام بدليل التعبير عن محمد بعد ذلك بالاسم الظاهر دون الضمير «وما صاحبكم بمجنون» ؛ إذ لو كان هو المراد بلفظ الرسول لقيل: وما هو بمجنون . انظر: الجامع لأحكام القرآن (ج١٨/ ٢٧٤) ، والتفسير الكبير (ج٣٠/ ١١٦ ـ ١١٧) ، وروح المعانى (ج٢٩ـ٥٣) ، والتحرير والتنوير (ج١٥ / ١٥٤ ـ ١٥٥) وسوف نرى بعد قليل أن فى صيغة القسم التى صدر بها السياق ما يدعم ترجيح هذا الرأى.

الحقيقة «**نزل به الروح الأمين على قلبك**» وإيثار مادة التنزل المشعرة بالكذب[1] فى نفى مقابلها «**وما تنزلت به الشياطين**» ثم على دعم دلالة هذا النفى بتعرية كذب من تتنزل عليه «**هل أنبئكم على من تنزل الشياطين . تنزل على كل أفاك أثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون**» ثم أخيرًا على اللفت إلى ضلال مذاهب الشعراء الذين يسود الاعتقاد بين المشركين تنزل هؤلاء الشياطين عليهم؛ وذلك لإبراز المفارقة ـ التى تتقوض بها تهمة الشعر ـ بين حالهم وحال متلقى الوحى القرآنى صلوات الله وسلامه عليه «**والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون**».

أما الحقيقة المثبتة فى السياق الثالث (الحاقة) وهى كون القرآن قول رسول كريم ـ فليست كالحقيقتين السالفتين من الأمور الغيبية التى يتطلب إقرارها ودحض المزاعم حولها فضل تأكيد أو استدلال؛ إذ المراد هنا هو نسبة القرآن لا إلى مصدره الملائكى غير المحسوس كما في السياق الأول، بل إلى مبلغه البشرى ﷺ الماثل بشخصه وكريم خلقه بين هؤلاء المشركين، ومن ثم اكتفى السياق هنا ـ وهذا سر قصره ـ بإثبات هذه الحقيقة ونفى مقابلها (تهمة الشعر) ، ولعل في اكتفائه بذلك ـ والله أعلم ـ إشعارًا لهؤلاء المشركين بأن هذا البيان القرآنى الذي يتلوه ذلك الرسول الكرين الذى ما جربتم عليه كذبًا قط هو فى حد ذاته دليل ـ لمن شاء منكم أن يستقيم ـ على أنه ليس بقولة شاعر!!

* لقد أقسم الخالق عز وجل فى اثنين من تلك السياقات الثلاثة على أن هذا البيان القرآنى قول «رسول كريم» وذلك حيث يقول ـ سبحانه ـ فى صدر السياق الأول: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾﴾ [التكوير : ١٥ ـ ١٩] وحيث يقول فى صدر

---

(١) يقول الراغب في ذلك : «لا يقال فى المفترى والكذب وما كان من الشياطين إلا التنزل» المفردات (٤٨٩).

السياق الثالث: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾ [الحاقة: ٣٨ـ ٤٠].

لقد اختلف المفسرون[1] فى بيان المراد بالخنس الجوارى الكنس في السياق الأول، فلقد قيل ـ فى رأى ـ : هى بقر الوحش والظباء ، فالخنس من الخنس فى الأنف أى تأخره إلي الرأس وارتفاعه عن الشفة؛ إذ إن هذه هى صفة أنوف البقر والظباء، أما الكُنس فهى جمع كانس وهى التى تدخل الكناس (الموضع الذى تختفى فيه الظباء) وقيل في رأى آخر ـ وهو ما رجحه كثير من المفسرين : إن المراد بها الكواكب التى تسمى الدرارى ، وهى عطارد والزهرة والمريخ والمشترى وزحل، والمعنى أن هذه الكواكب تخنس تحت ضوء الشمس بالنهار، أى تختفى وهى جارية فى أفلاكها، وتكنس عند إدبار الليل، أى تتوارى في بروجها كما تتوارى الظباء في كناسها، ومما قيل فى ترجيح هذا الرأى أن السياق قد ذكر عسعسة الليل وتنفس الصبح بعد القسم بالخنس الجوارى الكنس ، والليل والصبح أليق بالنجوم منهما بالظباء وبقر الوحش.

كما اختلفوا كذلك فى بيان المراد بعسعسة الليل فى قوله جل شأنه : «**والليل إذا عسعس**» فلقد قيل: إنه إدبار الليل بظلامه وقيل: بل المراد إقباله، وقال الراغب: العسعسة: رقة الظلام في طرفى الليل، وعلى ذلك فالمراد: إقبال الليل وإدباره معًا، غير أن القول بأن المراد بالعسعسة هو إدبار الليل بظلامه هو ما رجحه كثير من المفسرين، وذلك لقوة الملاءمة بين هذا الإدبار وتنفس الصبح المذكور بعده مباشرة فى السياق.

أما المراد بهذا التنفس فقد أجمع المفسرون على أنه ظهور ضوء الصباح وانتشاره بعد انقشاع ظلام الليل.

---

(١) انظر: تفسير الطبرى (ج٣٠ / ٣٧ ـ ٥٠) ، والكشاف (ج٤/ ١٨٩ ـ ١٩٠) ، والتفسير الكبير (ج٣١ / ٧٢ ـ ٧٣) ، والجامع لأحكام القرآن (ج١٩/ ٢٣٦ـ ٢٤٠) ، وروح المعانى (ج٣٠/ ٥٧، ٥٨) ،والمفردات (١٥٩ ، ٣٣٤).

عند هذا الحد نود أن نسأل: لماذا أوثر القسم بتلك الظواهر الكونية في هذا السياق؟

لقد ذكر غير واحد من المفسرين أن وجه القسم بها هنا هو عظمة دلالتها على قدرة الخالق عز وجل، يقول صاحب تفسير «التحرير والتنوير» عند تفسيره للآيات السابقة: «والمعروف في أقسام القرآن أن تكون بالأشياء العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى أو الأشياء المباركة»[1].

ومن منطلق تلك النظرة ذاتها رجح الفخر الرازى تفسير الخنس الكنس بالنجوم وذلك حيث يقول: «إن محل قسم الله كلما كان أعظم وأعلى رتبة كان أولى، ولا شك أن الكواكب أعلى رتبة من بقر الوحش»[2].

ويقول الإمام محمد عبده عند تفسيره لتلك الآيات:

«. . أقسم بهذه الدرارى أو الكواكب جميعها لينوه بشأنها من جهة ما فى حركاتها من الدلائل على قدرة مصرفها ومقدرها، وإرشاد تلك الحركات إلي ما فى كونها من بديع الصنع وإحكام النظام، مع نعتها فى القسم بما يبعدها عن مراتب الألوهية من الخنوس والكنوس تقريعًا لمن خصها بالعبادة واتخذها من دونه أربابًا، وفى الليل إذا أدبر زوال تلك الغمة التى تغمر الأحياء بانسدال الظلمة. . وفى الصبح إذا تنفس بشرى الأنفس بالحياة الجديدة في النهار الجديد، تنطلق فيه الإرادات إلي تحصيل الرغبات ، وسد الحاجات واستدراك ما فات ، والاستعداد لما هو آت»[3].

والواقع أن القول بأن رتبة المقسم به بين الكائنات أو عظمة دلالته على قدرة المبدع سبحانه هى وحدها سر إيثار القسم به إنما هو قول يصعب التسليم به

---

(١) التحرير والتنوير (ج١٥/ ١٥٤).

(٢) التفسير الكبير (ج٣١ / ٧٣).

(٣) تفسير جزء عم ، الشيخ / محمد عبده (٢٥) دار مطابع الشعب ١٩٨٩ .

ليس فقط فى هذا السياق الذى نحن بصدده، بل فى أى سياق آخر من سياقات القسم فى القرآن الكريم، فإذا كان المولى عز وجل قد أقسم بخنوس النجوم وكنوسها في هذا الموضع فإنه أقسم بمواقعها فى موضع آخر ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾ [الواقعة: ٧٥] وإذا كان قد أقسم فيه بالليل إذا عسعس وبالصبح إذا تنفس فإنه قد أقسم فى غيره بالليل إذا يغشى وبالضحى والشمس والفجر.. إلى غير ذلك من المخلوقات أو الظواهر التى لا تعوزها ـ جميعًا ـ عظمة الدلالة على قدرة البارئ سبحانه وبديع صنعه (صنع الله الذى أتقن كل شىء)، الأمر الذى يظل معه التساؤل واردًا عن سر إيثار كل منها بسورة بذاتها أو بسياق بذاته من سياقات ذلك البيان القرآنى المعجز؟!

إن ما يبدو لى هنا ـ والله أعلم ـ هو أن السياق الذى نحن بصدده إنما آثر القسم بخنوس الكواكب وكنوسها وعسعسة الليل وتنفس الصبح ـ ليس فقط لقوة دلالتها على عظمة الخالق وقدرته، بل لأنها دون غيرها من الظواهر الكونية ـ التى تشاركها فى تلك الدلالة ـ هى الأكثر ملاءمة لطبيعة المقسم عليه، والأقوى دلالة على تأكيد حقيقته، ودحض ما أثاره المشركون حوله من مزاعم، ولتوضيح مدى هذه الملاءمة نود أن نلاحظ ما يلى:

أ ـ **أن المقسم عليه فى هذا السياق** وفى سياق سورة «الحاقة» هو كون القرآن «قول رسول كريم»، أى أن غاية القسم فى السياقين هى تأكيد نسبة القرآن إلي ملك الوحى (مصدره الغيبى) فى السياق الأول، وإلى المنزل عليه ﷺ (مبلغه البشرى) فى السياق الثانى.

ب ـ **أن المقسم به فى كلا السياقين** يتضمن جانبين: ظاهر محسوس يتمثل فى أولهما فى تنفس الصبح بعد عسعسة الليل، ويتمثل فى الثانى فى «ما تبصرون» والآخر خفى غير محسوس يتمثل فى الأول في خنوس النجوم وكنوسها، ويتمثل فى الثانى فى «ما لا تبصرون».

ج ـ **أن القسم بهذين الجانبين** لم يجر فى السياقين على ترتيب واحد، فبينما قدم المحسوس على غير المحسوس فى سياق « الحاقة » قدم غير المحسوس على

المحسوس فى سياق «**التكوير**» ،وبالتأمل يتبين لنا أن المقدم فى كل من السياقين هو الجانب الذى يلائم طبيعة المقسم عليه، فالمقسم عليه في سورة الحاقة هو تأكيد نسبة القرآن إلي الرسول البشرى (الذى يراه القوم ويسمعون تلاوته لهذا القرآن) ومن ثم قدم القسم بالمحسوس أى بالجانب الأكثر ملاءمة لتأكيده «**فلا أقسم بما تبصرون**»، أما فى سورة «**التكوير**» فإن المقسم عليه هو تأكيد نسبة هذا القرآن إلي الرسول الملائكى (غير المرئى) ، ومن ثم قدم القسم بالجانب الخفى أو غير المحسوس «**فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس**». ولعلنا نلاحظ أن السياق هنا لم يذكر الحال المحسوسة التى تكون عليها النجوم بين الخنوس والكنوس (أعنى حال ظهورها منذ أول الليل حتى لحظة تواريها أو كنوسها فى آخره) أى أنه قد اكتفى بذكر الحالين الملائمتين لطبيعة المقسم عليه لفعالية أثرهما في تأكيده، ودحض مفتريات المشركين حول حقيقته ، فكأنه قيل لهم عن طريق القسم بهما : إذا كنتم لا تنكرون حقيقة وجود النجوم ـ برغم خفائها ـ فى حالى الخنوس والكنوس ، فكيف اتخذتم من خفاء رسول الوحى ذريعة لإنكار وجوده والطعن فى حقيقة نسبة القرآن إليه؟!

على أن فى وصف النجوم بصفة الجرى التى وقعت وسطًا بين صفتى الخنوس والكنوس (الخنس ـ الجوار ـ الكنس) ما يدل على أن المراد ليس هو اللفت إلى حالى هذه النجوم في الخفاء فحسب، بل إلي حركتها الدائرية بينهما، فهى تخنس فى النهار وتكنس فى آخر الليل، ثم تعود عند تبلج الصبح بالضياء إلى الخنوس مرة أخرى.. وهكذا، ولعلنا نلاحظ مدى المواءمة بين هذه الحركة وحركة رسول الوحى الخفية به، صعودًا إلى الملأ الأعلى وهبوطًا إلى المنزل عليه ﷺ، ثم صعودًا إلى الملأ الأعلى تارة أخرى.. هكذا.

د ـ بينما ختم سياق «التكوير» بقوله عز وجل فى وصف القرآن : «**إن هو إلا ذكر وقرآن مبين، لمن شاء منكم أن يستقيم..**» ختم سياق «الحاقة» بقوله سبحانه فى وصفه: «**تنزيل من رب العالمين**» ، ولعلنا نلاحظ أن كلا من الوصفين قد جاء موائمًا ـ من حيث كونه محسوسًا أو غير محسوس ـ للجانب الذى أخر القسم به

فى سياقه؛ فمحسوسية الذكر والقرآن[1] فى السياق الأول يلائمها أو ـ بالأحرى ـ يلائم تأكيدها القسم بتنفس الصبح بعد إدبار الظلام، وغيبية التنزيل فى السياق الثانى يلائم تأكيدها القسم بغير المحسوس فى «وما لا تبصرون» ومؤدى ذلك أن هذين السياقين قد تضافرا عن طريق مزاوجة القسم فيهما بين المحسوس وغير المحسوس فى إقرار حقيقة الوحى القرآنى ودحض ما زعمه المشركون من أن ذلك القرآن هو وحى شيطان أو قول شاعر، ويمكن توضيح المسلك الذي سلكه أسلوب القسم فى هذين السياقين فيما يلى:

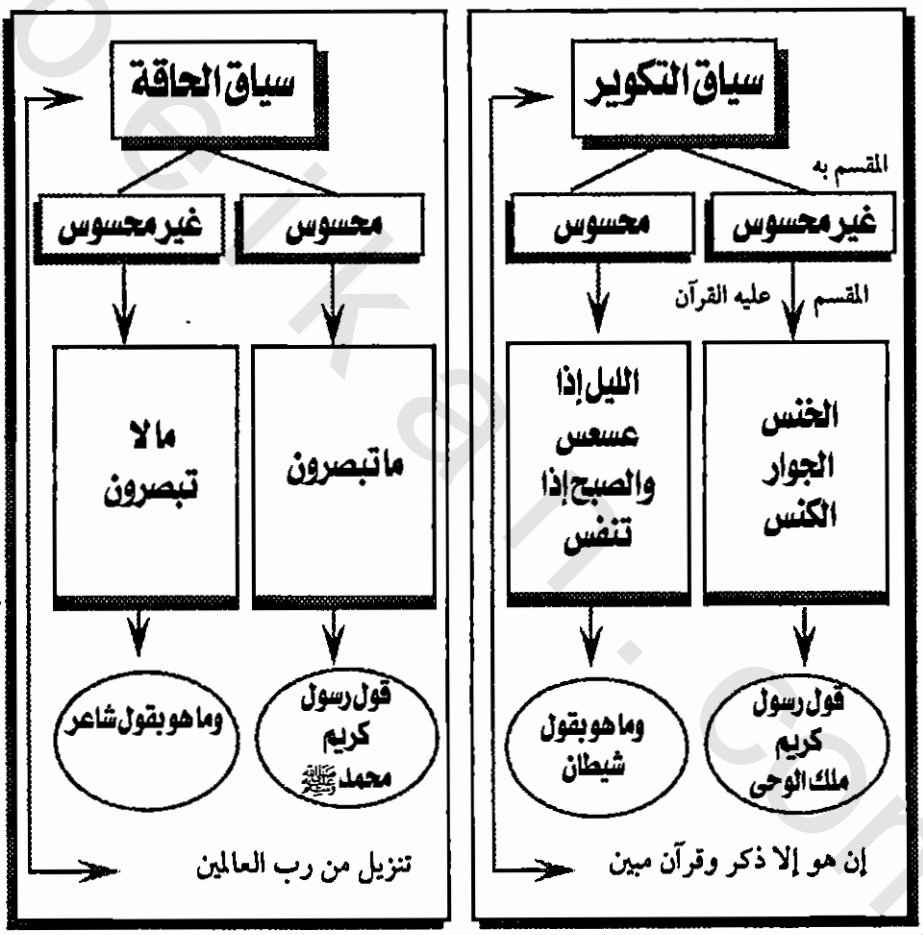

(١) إذ المراد بالذكر ـ كما يقول الراغب ـ : الذكر باللسان ، والقرآن هو مصدر قرأ بمعنى ضم الحروف والكلمات بعضها إلي بعض في الترتيل . انظر: المفردات (١٧٩ ، ٤٠٢).

ثانيًا: إبراز دور الشهب عند البعثة في منع تمكن الشياطين من السماء الدنيا:

حينما نفى سياق سورة الشعراء تنزل الشياطين بالقرآن (بعد تأكيد نزول الروح الأمين به) اتبع هذا النفى بنفى تمكنهم من التنزل به ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (٢١٢)﴾ .

[الشعراء: ٢١٠ـ٢١٢]

يقول الحافظ ابن كثير: لقد بين القرآن أن هذا التنزل يمتنع عليهم من ثلاثة أوجه «أحدها : أنه ما ينبغى لهم ، أى ليس هو من بغيتهم ولا من طلبتهم؛ لأن من سجاياهم الفساد وإضلال العباد، وهذا فيه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ونور وهدى وبرهان عظيم، فبينه وبين الشياطين منافاة عظيمة.. وقوله : (وما يستطيعون)، أى ولو انبغى لهم لما استطاعوا ذلك ، قال الله تعالى: ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله﴾ ثم بين أنه لو انبغى لهم واستطاعوا حمله وتأديته لما وصلوا إلى ذلك؛ لأنهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله[1]..».

ونود هنا أن نلاحظ الفارق بين السمع الذى يؤكد هذا السياق كون الشياطين معزولين عنه والسمع الذي أخبرت السياقات الأخرى عن الحيلولة بينهم وبين استراقه أو خطف الخطفة منه، تلك السياقات التى يبدأ أولها نزولاً بقوله عز وجل على لسان النفر الذين آمنوا من الجن عند استماعهم للقرآن ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (٩)﴾ [الجن: ٨ـ٩].

ولتجلية الفارق بين هذين السمعين نود أن نلاحظ ما يلى:

* أن سياق سورة الشعراء لم يتضمن كما تضمن سياق سورة الجن رمى الشياطين بالشهب.

---

(١) تفسير ابن كثير (ج٣/ ٣٤٩).

* بينما يقطع سياق «الشعراء» بعدم تمكن الشياطين من السمع يثبت سياق «الجن» أنهم قد كانوا يمكنون منه ومن اتخاذ «مقاعد» فى السماء من أجله، ثم حيل بينهم وبين ذلك.

* بينما آثر سياق « الشعراء » التعبير عن عزل الشياطين عن السمع بصيغة الاسم الدالة على استمراريته وعدم تقيده بزمن دون زمن (إنهم عن السمع لمعزولون) آثر سياق «الجن» التعبير عن منعهم من الاستماع بصيغة المضارع ـ الدالة على حدوثه ـ مع تقييدها بالظرف الدال على الزمن الحالى (فمن يستمع الآن يجد له شهابًا رصدا).

وفى تصورى أن مرد هذا الفارق ـ والله أعلم ـ هو أن سياق سورة الجن لا يدور كما يدور سياق سورة الشعراء حول الوحى القرآنى، أعنى أن هذا السياق لا يخبر عن حجب الشياطين عن سماع الوحى القرآنى (إذ هم عن سماعه ـ دائما ـ بمعزل) بل عن حجبهم عن سماع أخبار السماء، تلك الأخبار التى كانوا قد مكنوا قبل البعثة النبوية ـ أو قبل رميهم بالشهب [1] ـ من اختطاف بعضها والتنزل بها على الكهان.

ولعل فى الأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ في هذا الصدد ما يدعم هذا التصور . . . فمن تلك الأحاديث:

---

(١) لقد اختلف العلماء حول وقت حدوث ظاهرة الرجم بالشهب: فلقد قيل: إنها لم تحدث إلا عند بعثة المصطفى ﷺ، وهى لذلك تعد إحدى آيات نبوته، وقيل فى رأى آخر: إن تساقط الشهب كان موجودًا قبل البعثة وما حدث بعدها هو جعلها رجومًا للشياطين ، وقيل فى رأى ثالث ـ وهو ما نميل إليه ـ : إن هذه الظاهرة كانت رجومًا للشياطين قبل البعثة، غير أنها تكاثرت بعدها بدليل قوله عز وجل في سورة الجن حكاية عنهم : ﴿وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسًا شديداً وشهبا﴾. انظر فى هذا الآراء : الحيوان (ج٦/ ٢٧٢ ـ ٢٨١) ، وروح المعانى (ج٢٩/ ٨٧) ، والتفسير الكبير (ج ٣٠/ ١٥٨) ، والجامع لأحكام القرآن (ج١٩/ ١٣).

* ما رواه ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ عن رجال من الأنصار قالوا: «كنا عند النبى إذ رُمى بنجم فاستنار ، فقال: ما كنتم تقولون لهذا إذا رمى به فى الجاهلية؟ قالوا: كنا نقول: ولد الليلة رجل عظيم، ومات رجل عظيم، فقال رسول الله ﷺ: فإنها لا ترمى لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا إذا قضى أمراً أخبر أهل السموات بعضهم بعضا حتى يبلغ الخبر السماء الدنيا فيخطف الجن السمع فيقذفون به إلى أوليائهم»[1].

* ما رواه أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ أنه قال: «إذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانًا لقوله كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذى قال: الحق وهو العلى الكبير ، فيسمعها مسترق السمع.. فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر على من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدرك الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبه، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا : كذا وكذا، فيصدق بتلك الكلمة التى سمع من السماء»[2].

* ما رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه قال: «انطلق رسول الله ﷺ فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب .. فانطلقوا فضربوا مشارق الأرض ومغاربها ينظرون ما هذا الأمر الذي حال بينهم وبين خبر السماء؟ قال: فانطلق الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ بنخلة وهو عامد إلى سوق عكاظ وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن تسمعوا له فقالوا: هذا الذى حال بينكم وبين خبر السماء»[3].

---

(١) فتح البارى (٨/ ٥٤٠، ٥٤١).

(٢) انظر : السابق (٣٩٨).

(٣) انظر : السابق (٥٣٧، ٥٣٨).

فرمى الشياطين بالشهب كما تصرح تلك الأحاديث لم يكن للحيلولة بينهم وبين الوحى القرآنى ، بل للحيلولة بينهم وبين أخبار السماء المتعلقة بما يجرى القضاء الإلهى بحدوثه مستقبلاً فى عالم البشر، وهذا ما يتضح بجلاء فى قول ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ فى حديث آخر : إن الملائكة يقولون: «يكون العام كذا وكذا فيسمعه الجن فتخبر الكهنة الناس فيجدونه»[1].

لقد حدد أول تلك الأحاديث حدود الطاقة السمعية التى مُكنت بها الشياطين من بعض أخبار السماء، وذلك فى قوله ﷺ : « حتى يبلغ الخبر السماء الدنيا فيخطف الجن السمع»، ففى تصدير هذا القول بالحرف الدال على انتهاء الغاية «حتى»، ثم فى عطف فعل الخطف على فعل البلوغ بالفاء المفيدة لمعنى الترتيب والتعقيب ـ فى هذا وذاك ما يدل صراحة على عجز الشياطين عن تسمع هذا الخبر قبل بلوغه إلى ملائكة هذه السماء (الدنيا) ومؤدى ذلك أنهم عاجزون[2] من باب أولى عن تسمع الوحى القرآنى الذى لا ينزل من تلك السماء ولا تتنزل به تلك الملائكة، وإنما هو كما وصفه منزله سبحانه « **تنزيل من رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك..**» ولعل هذا ـ والله أعلم ـ هو المراد من نفى تسمع الشياطين إلى الملأ الأعلى فى قوله عز وجل فى سياق سورة الصافات: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾ [الصافات: ٦ـ ١٠].

---

(١) انظر : السابق (٤٠٠).

(٢) لقد تضمن ثالث هذه الأحاديث دليلاً قاطعًا على هذا العجز ، فإذا كان الشياطين كما يصرح هذا الحديث ـ قد ضربوا مشارق الأرض ومغاربها قبل أن يدركوا أن ما سمعوه من محمد ﷺ هو سبب الحيلولة بينهم وبين خبر السماء ،فإن مغزى ذلك أنهم كانوا عاجزين آنذاك ليس فقط عن سماع القرآن حال نزول رسول الوحى به، بل حتى عن مجرد العلم بهذا النزول!!

ونحن بذلك نستبعد الرأى الذى جرى كثير من المفسرين[1] على ترديده والذى يقرر أن قوله عز وجل فى الآية الأخيرة : «**إلا من خطف الخطفة**» هو استثناء من قوله: «**لا يسمعون إلى الملأ الأعلى..**» وأن المعنى هو أن هؤلاء الشياطين لا يسمعون إلى الملأ الأعلى إلا الشيطان الذى يتمكن من اختطاف الخطفة، ونطمئن فى مقابل ذلك إلى الرأى الذى ذهب إليه القرطبى[2] وهو أن مرد هذا الاستثناء هو قوله عز وجل قبله مباشرة : «**ويقذفون من كل جانب دحوراً ..**» وأن المعنى هو أن الشهب تتقاذف الشياطين من السماء الدنيا (لا من الملأ الأعلى) لدفعهم أو دحرهم دون سماع أخبارها، غير أن منهم من يتمكن من اختطاف الخطفة فيلاحقه حينئذ شهاب يبطل محاولته.. ومقتضى هذا الرأى أنه ليس فى طاقة الشياطين استراق السمع إلى الوحى القرآنى وهذا بعينه هو ما يصرح به القرطبى إذ يقول بعد رأيه السابق:

«الاستثناء يرجع إلى غير الوحى لقوله تعالى: «**إنهم عن السمع لمعزولون**» فيسترق الواحد منهم شيئًا مما يتفاوض فيه الملائكة مما سيكون فى العالم قبل أن يعلمه أهل الأرض، وهذا لخفة أجسام الشياطين فيرجمون بالشهب حينئذ»[3].

لقد قرأ بعض القراء فعل السمع فى هذا السياق خاصة بتشديد السين والميم «**لا يسَّمَّعون**» وأصله يتسمعون فأدغمت التاء في السين، وقرأه آخرون بتسكين السين وتخفيف الميم «لايسْمعون» ،وقد ذكر أكثر المفسرين أن تعديته بـ «إلى» على هذه القراءة هو لتضمينه معنى الإصغاء ، ومؤدى ذلك أن القراءتين متوافقتان فى الدلالة على ما نحن بصدد إثباته؛ إذ إن كلا من الإصغاء والتسمع إنما يعنى الإقبال على السمع والتهيؤ له، ومعنى ذلك أن نفى السمع أو التسمع فى هذا السياق هو

---

(١) انظر: الكشاف (ج٣/ ٢٩٦) ، والبحر المحيط (ج٧ / ٣٥٣) ، وغرائب القرآن / على هامش الطبرى (ج٩ / ٤٧)،والتفسير الكبير (ج٢٦ / ١٢٣)،وروح المعانى (ج٢٣ / ٧١).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (ج١٥ / ٦٦).

(٣) السابق : (٦٦، ٦٧).

إشارة واضحة إلى أن هؤلاء الشياطين الذين مكنت أسماعهم حينًا من اقتناص بعض أخبار الغيب من السماء الدنيا ليس فى طاقتهم أصلاً تطلب السماع ـ فضلاً عن تحصيله ـ من الملأ الأعلى.

لعلنا فى ضوء ما تقدم نستطيع القول: إن ظاهرة الرمى بالشهب إنما تكاثرت عند بعثة المصطفى ﷺ لا للحيلولة بين الشياطين وبين الوحى القرآنى (كما قد يتبادر إلى الذهن لأول وهلة) ، بل لإحكام الحيلولة بينهم وبين أخبار السماء الدنيا، إيذانًا بزوال عصر الكهانة قبل نزول هذا الوحى من جهة، ودحضا لشبهة علاقة الشياطين به من جهة أخرى ؛ إذ إن عجزهم كلية عن تلقى أخبار تلك السماء (التى هى أدنى درجة فى طريق نزوله من الملأ الأعلى) هو دليل قاطع على عجزهم من باب أولى عن تلقيه قبل بلوغه إلى الموحى إليه ﷺ.

وفى تصورى ـ والله أعلم ـ أن دحض شبهة علاقة الشياطين بالوحى القرآنى هو سبب تكرار الإشارة إلى ظاهرة رجمهم بالشهب فى البيان القرآنى، فلقد ورد الإخبار عن تلك الظاهرة فى أربعة سياقات (أشرنا إلى اثنين منها منذ قليل) وهى بحسب ترتيب نزولها كما يلى:

* ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾ [الجن: ٨ ، ٩].

* ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحجر: ١٦ـ١٨].

* ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلأِ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾ [الصافات: ٦ـ ١٠].

* ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾ [الملك: ٥].

ونود أن نلاحظ بصدد هذه السياقات ما يلى:

أ ـ أن واحدًا منها لم يشر (كما أشارت بعض الأحاديث النبوية السابقة) إلى أن الشيطان قد يتمكن رغم مطاردة الشهب له من الإفلات ببعض كلم السماء أو أخبارها كى يتنزل بها إلى أوليائه من الكهان. ومغزى ذلك أن هذه السياقات إنما نزلت لرصد حال الشياطين بعد البعثة النبوية التى دحروا بسببها ـ تمامًا ـ دون هذا التمكن.

ب ـ أن كل هذه السياقات (بل كل السور التى وردت فيها) مكى النزول، أى أنها نزلت فى ذلك العهد الذى كان مشركو مكة يحاولون فيه ترويج زعمهم بأن البيان القرآنى قول شاعر يستوحى ما ينطق به من أحد الشياطين.

ج ـ أن هذه السياقات قد تضافرت فى تجسيد الدور الحاسم الذى تنهض به الشهب فى سبيل حفظ السماء الدنيا من الشياطين؛ إذ بتأمل هذه السياقات يبين لنا ما يلى:

* أن الثلاثة الأولى منها قد استقصت ـ على الترتيب ـ كل الأحوال التى تتعاقب على الشيطان أو يتنقل هو فيها قبل أن يتنزل على أحد أوليائه ـ على الأرض ـ بما سمع من تلك السماء، فلقد رصد سياق الجن حال نزوعه النفسى أو تحفزه لمحاولة الاستماع «فمن يستمع الآن»[٢]، ورصد سياق الحجر تخفيه أو تستره من أجل تنفيذ تلك المحاولة « إلا من استرق السمع . . . »[٣]. ثم رصد سياق الصافات حال ظفره ببعض ما يريد «إلا من خطف الخطفة . . .» ولعلنا نلاحظ

---

(١) انظر : البرهان فى علوم القرآن (ج١ ١٩٣)، والإتقان فى علوم القرآن (ج١ / ٩ ، ١٠).

(٢) ففعل الاستماع فى الآية الكريمة لا يعنى الاستماع الفعلى بل التهيؤ لتحصيله مستقبلاً ، يقول أبو حيان عند تفسيره لتلك الآية: الآن: ظرف زمان للحال ويستمع مستقبل فاتسع في الظرف واستعمل للاستقبال ، البحر المحيط (ج٨ / ٣٤٥).

(٣) فاسترق السمع يعنى السعى ـ فى خفاء ـ لتحصيله ـ انظر : المادة في لسان العرب، وكذا: غرائب القرآن على هامش الطبرى (ج٧ / ١١).

أن ترتيب هذه السياقات فى النزول قد جاء وفقًا لترتب تلك الأحوال فى الحدوث!!

* أن الشهاب الراجم أو الداحر قد وُصف فى كل سياق من السياقات الثلاثة بالوصف الملائم لإحباط الحال التى رصدها؛ فبينما وصف الشهاب مع حال التحفز أو النزوع بكونه «شهابًا رصدًا» وصف مع حال التخفى أو التستر بأنه «شهاب مبين» ووصف فى حال الظفر أو التحصيل بأنه «شهاب ثاقب»ومغزى ذلك أن ظاهرة الرجم بالشهب قد وقفت بالمرصاد لكل خطوة يخطوها الشياطين فى سبيل محاولة التسمع إلى ما تردده الملائكة فى السماء الدنيا، فإذا همَّ أحدهم بهذا التسمع وجد شهابًا يترصده يَهمُّ هو الآخر بإحراقه، فإذا ما اجترأ بعد ذلك وسعى مستخفيًا من أجل محاولة ذلك فاجأه شهاب مبين يظهره ويعرى موقعه الذى يحاول التستر فيه، أما إذا كان شيطانًا ماردًا فتشبث رغم هذا وذاك بتنفيذ محاولته حتى يتمكن من اختطاف الخطفة مما يود سماعه، فإن الشهاب الثاقب يتبعه حتى يحرقه كى يحول دون إفلاته بما اختطف، ونحن بذلك نرجح ـ مع القرطبى ـ الرأى القائل بأن الشهب تقتل الشياطين، وأن قتلها لهم يكون بعد استراقهم السمع، وقبل إلقائهم ما استرقوه إلى غيرهم[1].

* أن السياق الرابع والأخير (فى سورة الملك) قد صرح بأن الشهب أو المصابيح قد جعلت رجومًا للشياطين دون أن يتضمن الإشارة إلى محاولة هؤلاء الشياطين استراق السمع من السماء الدنيا ولعل ذلك ـ والله أعلم ـ لإجمال النتيجة التى بلورتها السياقات الثلاثة السابقة عليه فى النزول، وهى أن هذه المحاولة بكل خطواتها مقضىٌ عليها بالفشل ، أى أن عدم الإشارة إليها هنا هو للإعلام بأنها ـ برغم وجودها ـ كالعدم.

د ـ أن السماء لم توصف فى البيان القرآنى بوصف (الدنيا) إلا فى ثلاثة مواضع ورد اثنان منها فى السياقات السابقة (الصافات ـ الملك) وورد الثالث فى

---

(١) انظر : الجامع لأحكام القرآن (ج١٠ / ١١).

سياق مشابه لها من حيث كونه مثلها مكى النزول، ومن حيث إخباره كما أخبرت عن حفظ تلك السماء من الشياطين (وإن لم يصرح بذكرهم) وهو قوله عز وجل: ﴿ ... وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾ [فصلت: ١٢] وتلك ظاهرة لها فى تصورى مغزاها العميق فيما نحن بصدده لا سيما إذا أضفنا إليها أن هذا البيان لم يصف السموات بنقيض الوصف السابق (العلى) إلا فى سياق واحد يخبر عن نزول الوحى القرآنى على المنزل عليه ﷺ، وذلك فى قوله جل شأنه: ﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ ﴾ [طه: ٢ـ٤].

لعل فيما تقدم من ملاحظات ما يدعم الرأى الذى أومأنا إليه من قبل، وهو أن هذه السياقات القرآنية التى دارت حول ظاهرة الرمى بالشهب هى أحد الأدلة الداحضة لشبهة علاقة الشياطين بالقرآن. فكأن هذه السياقات تقول لمن حاولوا ترويج تلك الشبهة؛ إذا كان هؤلاء الشياطين قد عجزوا منذ بعثة المصطفى ﷺ حتى عن الإفلات ولو بخطفة واحدة من تلك السماء (الدنيا) فعلى أى أساس إذن أقمتم زعمكم الباطل بأن القرآن الذى أنزل عليه هو وحى شيطان أو ـ بحسب معتقدكم الأسطورى فى إبداع الشعر ـ قول شاعر؟؟!!

ثالثا. تأكيد عجز الجن والإنس معا عن الإتيان بمثل القرآن

وذلك فى قوله عز وجل فى أولى آيات التحدى:

﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٨].

لقد رجح كثير من علماء السلف القول بأن التحدى فى تلك الآية الكريمة ليس موجهًا للإنس والجن (كما ذهب إلى ذلك بعضهم) بل هو للإنس فحسب؛ إذ إن الجن ـ كما قالوا: ليسوا من أهل اللسان العربى الذي جاء القرآن على أساليبه

حتى يتسنى تحـديهم بالإتيان بمثله[1] ، ولعل مما يدعم هذا الرأى أن البيـان القرآنى لم يحك الادعاء الموجب للتحدى (أعنى ادعاء القدرة على الإتيان بمثله) إلا منسوبًا إلى عالم الإنس، كما فى قوله جل شأنه عن مشركى مكة:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنفال: ٣١].

والتسـاؤل الذى يثيره هذا الرأى هو: إذا كان الإنس لا الجن هم المقـصودين بالتحدى فى الآية الكريمة فلماذا أوثرت بذكرهما معًا دون غيرها من آيات التحدى أو المعاجزة؟

لقد ذهب برهان الدين البـقاعى إلى أن السبب فى ذكر الجن مع الإنس فى الآية هو اتساع قاعدة المتحدى به؛ إذ إن التحدى فيها ليس بمثل سورة أو بمثل عشر (كما فى نظائرها من الآيات) وإنما بمثل القرآن ـ فهو يقول:

«ولما أريد هنا المماثلة فى كل التفصيل إلى جميع السور فى المعانى الصادقة، والنظوم الرائقة كمـا دل عليه التعبيـر بالقرآن ـ زاد فى التحدى قيد الاجـتماع من الثقلين ، وصـرف الهمم للتظاهر والتعـاون والتظافر بخلاف ما مـضى فى السور السابقة[2]. . ».

والواقع أن هـذا الرأى الذى ذكره البقاعى غير مسلم به؛ إذ لو كان التحدى بمثل القرآن يقتضى إضافة الجن إلى الإنس لما خلا من تلك الإضافة قوله عز وجل فى سياق آخر (عبَّـر فيه عن القرآن بلفظ الحديث) : ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور: ٣٣، ٣٤] ـ أضف إلى ذلك أن سورة الإسـراء قد نزلت بمكة[3]، وهى السورة الخمسون (أو الـتاسعة والأربعون)

---

(١) انظر: البرهان فى علوم القرآن (ج٣ / ١١١) ، والإتقان فى علوم القرآن (ج٢ / ١٢٤).

(٢) نظم الدرر (ح١١ / ٥٠٨).

(٣) تجدر الإشارة إلي أن نزول هذه السورة في العهد المكى ينفى ما روى في سبب نزولها=

بحسب ترتيب النزول، ومؤدى ذلك أن التحدى بآيتها قد وقع قبل أن يكتمل نزول نصف القرآن فكيف يتسنى القول ـ إذن ـ بأنه كان تحديا بمثل جملة القرآن أو بمثل جميع السور؟!!

والحق أننا نميل فى هذا الصدد إلى الرأى القائل بأن المبالغة فى تعجيز الإنس هى سبب ذكر الجن معهم فى الآية الكريمة؛ لأن الهيئة الاجتماعية ـ كما يصرّح ـ أحد القائلين بهذا الرأى ـ «لها من القوة ما ليس للأفراد ، فإذا فرض اجتماع جميع الإنس والجن، وظاهر بعضهم بعضا، وعجزوا عن المعارضة كان الفريق الواحد أعجز، ونظيره فى الفقه تقدم الأخ الشقيق على الأخ للأب فى ولاية النكاح، مع أن الأمومة ليس لها مدخل فى النكاح»[1].

غير أن ميلنا إلى هذا الرأى ـ دون سابقه ـ لا ينفى إحساسنا بأنه لم يقدم إجابة شافية عن تساؤلنا السابق؛ إذ مع تسليمنا بأن فى إضافة الجن إلى الإنس فى الآية الكريمة مبالغة فى إظهار عجز الإنس عن معارضة القرآن يظل التساؤل وارداً عن سبب إيثارها بتلك الإضافة دون نظائرها من الآيات التى تحققت فيها أيضًا ـ بصورة أو بأخرى[2] ـ تلك المبالغة؟!

وفى تصورى أن هذه الآية الكريمة إنما نزلت دون نظائرها (وهو ـ والله أعلم ـ سبب تفردها بذكر الجن) للرد على ادعاء مشركى مكة بأن لمحمد ﷺ رئيًا من الجن

= من أن نفرًا من اليهود جاءوا إلي رسول الله ﷺ وقالوا له: إنا نأتيك بمثل ما جئتنا به، يقول ابن كثير فى إبطاله لتلك الرواية : «وفى هذا نظر؛ لأن السورة مكية، وسياقها كله مع قريش، واليهود إنما اجتمعوا به فى المدينة..» تفسير القرآن العظيم (ج٢ / ١٢) ، وانظر : الرواية مفصلة في تفسير الطبرى (ج٧ / ١٠٦ ،١٠٧).

(١) البرهان في علوم القرآن (ج٢ / ١١١)، وانظر : روح المعانى (ج١٥ / ١١٦)، والإتقان فى علوم القرآن (ج٢ / ١٢٤).

(٢) كقصر مجال التحدى في بعض هذه الآيات على سورة واحدة أو على عشر مفتريات، وكمطالبة المقصودين بالتحدى بإشهاد من يستطيعون إشهاده . . إلخ.

يلهمه بما يقول شأنه فى ذلك شأن الشعراء ـ ولعل فى تأمل آيات التحدى والمعاجزة فى القرآن الكريم ما يدعم هذا التصور:

لقد ورد هذا التحدى فى خمسة مواضع من البيان القرآنى هى بحسب ترتيب نزولها كما يلى:

١ ـ ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن...﴾ (الآية التى نحن بصددها من سورة الإسراء).

٢ ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [يونس: ٣٨].

٣ ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ [هود: ١٣].

٤ ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور: ٣٣، ٣٤].

وتلك الآيات السابقة قد نزلت كلها فى العهد المكى، أما الآية التالية والأخيرة فقد نزلت فى أوائل العهد المدنى وهى:

٥ ـ ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة: ٢٣].

وبإنعام النظر فى تلك المواضع يتبين لنا ما يلى:

أ ـ أن كل موضع من المواضع الأربعة التى نزلت فى مكة قد جاء مضمنا فعل القول إما بصيغة الأمر «قل»، أو بصيغة المضارع «أم يقولون» أو بالصيغتين معًا، أما الموضع الخامس والأخير الذى نزل بالمدينة فقد خلا تمامًا من هذا الفعل، ومغزى تلك المخالفة ـ فيما أحس ـ هو أن آيات التحدى فى العهد المكى إنما نزلت لدحض التهم أو المقولات التى طعن بها مشركو مكة فى القرآن وحاولوا من خلال

ترديدها التشكيك فى نبـوة المنزل عليه ﷺ، أما آية التحدى فـى العهد المدنى فلم تنزل لوقع مـا تردده الألسن من تهم بل لاجتـثاث مـا تضمره بعض الـنفوس من شكوك أو وساوس «وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا[1]..».

ب ـ أن ثلاثة من المواضع الأربعـة المكية قد صـرحت بطبيعـة التهـمة التى سيقت لدحـضها، فهى فى آيتى «يونس وهود» تهـمة الافتراء «أم يقـولون افتراه» وهى فى آية الطور تهمـة التقول [2] «أم يقولون تقوله» ، أمـا آية الإسراء فإنها لم تصرح بمقولة المشـركين وإنما صرحت بتوجيه الرسـول ﷺ للرد عليهم بأولى صور المعاجزة «**قل لئن اجتمعت الإنس والجن..**» فإذا ما تذكرنا ما أشرنا إليه منذ قليل من أن هذه الصورة هى التى تفردت دون نظائرها بذكر الجن ترجح لدينا القول بأن التهمـة التى سيقت تلك الآية لدحضها ليـست هى تهمة الافتراء أو التـقول ـ كما ذهب إلى ذلك بعض المفسرين [3]ـ بل هى تهمة التلقى عن الجن.

ج ـ أن التحدى فى آية الإسـراء قد تحقق بصورة مغـايرة للصورة التى تحقق بها فى الآيات التى نزلت بعدها لدحض شبهة افتراء القرآن أو تقوله؛ إذ بينما ورد الفعل المتضـمن لمعنى التحدى فى تلك الآيات بصيغة الطلب (فـأتوا بسورة مثله ـ فأتوا بعشـر سور مثله ـ فليأتوا بحـديث مثله) ـ ورد فى آية الإسراء بصيغـة الخبر المنفى المؤكد بالقسم «... **لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمـثله..**» وهى مغايرة تدعم كسابقتها ما نحن بصدد ترجيحه؛ فتفرد هذه

---

(١) ولعلنا نلاحظ مدى مواءمة هذه الصورة من صور التـحدى لمجتمع المدينة الذى قويت فيه شوكـة الإسلام، ولم يسلك فيـه خصوم القرآن من المنافـقين واليهود مـسلك المجاهرة أو المعالنة الذي سلكه من قبلهم كفار قريش.

(٢) والتقول هو صورة خاصة من صور الافتـراء ،فالاتهام به يعنى كما أشار بعض المفسرين: أنه ﷺ افتراه من عنده ثم قال عن الغير إنه قاله ، انظر : المحرر الوجيز (ج١٥ / ٢٤٦) ، وروح البيان (ج٩ / ٢٠٢).

(٣) انظر : الجامع لأحكام القرآن (ج١٠ / ٣٢٧) ، وروح المعانى (ج١٥ / ١٦٧).

الآية دون نظائرها بالعدول عن صيغة الطلب هو دليل على أنها مسوقة لدحض شبهة صدور هذا القرآن عن الجن؛ إذ بالتأمل يتبين لنا أن تلك الشبهة هى التى يقتضى دحضها ـ خلافًا لشبهة الافتراء أو التقول» وسيلة أخرى غير مطالبة البشر بالإتيان بمثله[1].

نستطيع القول إذن فى ضوء تلك الملحوظات الثلاث: إن أولى آيات التحدى المعاجزة هى أحد الأدلة التى ساقها البيان القرآنى للرد على طعن المشركين فى سماوية تنزيله عن طريق الادعاء بأنه وحى شيطان أو . . قول شاعر.

---

(١) وقد ورد بهذه الصيغة أيضًا فى آية البقرة ، غير أنها كما رجحنا منذ قليل لم تنزل من أجل دحض شبهة بذاتها.